

الميلودي شغموم كما أعرفه (+) بطل على سمت أسلافه الممدنين

§ هشام العلوي

لا أتردد في الانقياد، كلما دعيت إلى لقاء دراسي أو ندوة نقدية حول الميلودي شغموم مبدعا وفيلسوبا وإنسانا، لأنني أُلقي في ثناياها الفرصة المتجددة لتواصل مع كاتب كبير من عيار الميلودي شغموم، وتعميق تمثلي لمنجزه الممتد في الزمان والأجناس التعبيرية، وتجربته التي يجمع النقاد على تفردِها من حيث منطلقاتها الفكرية واختياراتها الجمالية، وديناميتها أيضا التي لا تتضب بالإنتاج والإضافة المطردة، مما يخضبها بلون أصيل في فسيفساء المشهد الإبداعي والثقافي، المغربي والعربي، منذ السبعينيات من القرن الماضي إلى اليوم.

وعند كل مناسبة من هذا القبيل، تتضايف طي القراءة التي أساهم بها في تناول أعمال الكاتب، مداخل المقاربة النقدية مع بعض الإضاءات والاسترجاعات النابعة من ذاكرة مشتركة بيني وبين غيري من الأصدقاء ورفاق رحلة التحصيل والبحث العلميين، حيث يتلبس في تلايب هذه الذكريات النصي بالحياتي والمكتوب بالشفوي، وتتراكب صورة الميلودي شغموم الروائي والمبدع مع صور أخرى لشغموم: الأستاذ والصديق والإنسان.

طبعا لا أغامر بخرق ذلك العرف السبعيني المرعي في أدبيات الاحتفاء وأوافق التكريم، الذي يعتبر علاقة الجيل والمجالية في مقدمة الشروط اللازمة لتقديم شهادة في حق كاتب خلال احتفالية ما. كما لا يجيز لك هذا العرف كذلك الاقتراب من حياة الكتاب، وتأمل ما قد يجمعك وإياهم من لحظات غير اعتيادية، إلا بعد ما تفرغ من خبر نصوصهم وتشرب تجاربهم.

وأعتقد أنني لا أفشي سرا إن قلت أن اهتمامي النقدي وثُلَّة من الباحثين والدارسين برصد وتتبع مسار الميلودي شغموم في الكتابة والتأليف، ومحاولة استقطار ما ينتظمه من ثوابت ومتغيرات، لم يكن نابعا فقط من شغفنا القرائي بهذا المتن، وتفاعلنا مع القيم الجمالية

والثقافية المختلفة التي كان يبشر بها التجريب في الرواية والقصة والمجتمع، ولكن الحضور الفيزيقي لصاحب "الأبله والمنسية وباسمين" بيننا حينئذ داخل الفضاء الثقافي والجامعي لمدينة مكناس، ما كان له إلا ليذكي هذا الاهتمام ويوثقه، وبشكل بالنسبة إلينا قنطرة مفتوحة على الاتجاهين معا: الذات والنص، الكائن والكاتب، الإبداع والحياة؛ ولو أن التصورات النظرية السائدة في تلك الفترة كانت تنصر بشيء من اليقين لعدوى موت المؤلف، وانقطاع صلته بتواجه فور ولوج هذا الأخير مجال التلقي وسوق القراءة.

طبعا هذه العلاقة المركبة مع الميلودي شغموم حيث تتوزع بين الكاتب الذي يمشي في الأسواق ويخالط قراءه الفعليين والمحتملين من جهة، والكاتب الذي يتراءى من خلال أعماله كمقولة متعالية طيبة للنظر والحظوة النقديين من جهة ثانية، قد اتسجت أيضا، وإن بدرجات متفاوتة، تجاه أساتذة وتجارب وأسماء تفتح وعينا الثقافي في فضاء مكناس على حضورها المجتمعي المقترن بإشعاعها الرمزي:

- أستاذ الأجيال الدكتور حسن المنيعي بكل ضلاله الأكاديمية والإنسانية الوارفة،
- الشاعر علال الحجام بنفسه السبعيني المحترم وذائقته الحدائية،
- الناقد الهرمسي بنعيسى بوحماله بلغته الحدادية في التقاط التماعات الملتبس واللامرئي،
- المسرحي عبد الرحمان بن زيدان وبياناته الاحتفالية،
- الزجال محمد بنعيسى "...ولَهْ لَا يَخَيَّرْنَا فِي ضَرَارٍ..."،
- الشاعر المخضرم عبد السلام الزيتوني و"..سَارَاك، سَارَاك الذي لا ينتهي.."،
- الشاعر المرحوم عبد السلام المحمدي الذي استحال إلى قصيدة تتغنى بها الذاكرة والوجدان،
- المرحوم بنسالم الدمناطي الرائد والمؤسس لزمن الشعر بمكناس.

الأمر لم يكن، بالنسبة إلينا، ينحصر فحسب عند مستوى الانبهار بنخبة "محلية" استطاعت وقتئذ أن تشكل مركز قوى في صنع

"القرار" الثقافي وخلق الحدث الأدبي بالمغرب، وإنما يحمل كذلك استعجال اللحظة أو الفرصة التي ستيسر انخراطنا في هذه السيرورة المتنامية، وحصولنا بالتالي على موطئ قدم إلى جانب هذه الكوكبة الملتزمة.

في خضم هذا الحراك، وبقوة الأشياء، انبثقت فكرة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، بداية التسعينيات، التي خرج مشروعها مكتملا من مكتب نائب قيدوم كلية الآداب وقتها الذي لم يكن غير أستاذنا د. الميلودي شغموم، بل أحاط المشروع عند تأسيسه بما يحتاجه من سند ورعاية ودعاية، خصوصا وأن الجمعية كانت محط ممانعة داخل الجامعة، وارتباب أمني خارجها.

إن الرهان الظرفي أو المرحلي الذي كان يسوغ مبادرة من هذا القبيل، لم يعد إحداث إطار جمعي للتكوين الموازي في وجه خريجين يطمحون إلى استكمال دراساتهم العليا، وشحذ قدراتهم على التحليل والاستدلال والنقاش، والتمرس على استثمار المفاهيم والمناهج، أو ما يشبه تعلم أبجديات "الحلاقة" أو "الحجامة النقدية" في رؤوس وأجساد بعضهم البعض.

لكن الرهان الحقيقي الذي كانت تنطوي عليه هذه العملية في تقديري، هو أن الميلودي شغموم قد آمن لنا، ربما دون أن يتقصد ذلك مباشرة، جسر العبور إلى الضفة الأخرى التي كم كانت تبدو بعيدة متأبئة، حيث هو كاتب ومبدع، وحيث تلك العلامات المومضة التي تملأ المشهد الثقافي وتشغل إنتاجاتها القراء والنقاد والباحثين.

بعد ذلك، وبالتدريج ستتسع لنا تلك الدائرة المغلقة، وسيتوالى الاعتراف كما ستتعدد أشكال الاحتضان والاستقطاب، وسترسخ هويتنا كباحثين شباب، باعتبارها علامة مسجلة تتجاوز آفاقها حدود أسوار الجامعة والمدينة، ككارثيل أكاديمي ونقدي أصبح عنوانا أساسيا طيلة عقد من الزمن في أجنداث الشعراء والروائيين والمسرحيين والمؤلفين من مختلف الأصوات والتجارب والأجيال.

ويتساق مع ما كنا نعقده من محاضرات وندوات ومدارسات، انفتحت قنوات أخرى للقاء والحوار والصدقة والمكاشفة بما تضمن

به النصوص، ويظل متواريا خلف الكتابة، ولا تشي به الصيغة المجردة للمفاهيم والتصورات.

في هذا السياق، انتصبت جاذبية متن الميلودي شغموم في الرواية والقصة والتأليف النظري، التي لا تضاهيها سوى جاذبية الرجل في الحديث والإقناع وآداب الإنصات والمجالسة.

وهكذا، تكاد لا تجد رسالة أو أطروحة جامعية أو دراسة أو كتابا نقديا لأحد أعضاء جماعة الباحثين الشباب، بمختلف أجنحتها، قبل وبعد ما انتشروا في الآفاق، دون أن يكون شغموم مرجعية مركزية في بنائها النظري المعتمد ونماذجها التحليلية المختارة.

وأذكر أن الميلودي شغموم ، في أكثر من مناسبة، كان يردد أن ثمة عددا من الفلاسفة والأدباء يحرصون على أن تظل أعمالهم هي الوسيط الوحيد الذي يجمعهم بقرائهم، وذلك خوفا من أن تفقد نظرياتهم أو إشرافاتهم الفنية والإبداعية، إما إطلاقيتها ووثوقيتها، وإما جذوتها وسحرها المؤثر، إذا ما أشرعت أمام هؤلاء القراء النافذة المصلحة على حياتهم الشخصية وتفاصيل معيشتهم اليومي.

والواقع أن شغموم لم يتهيب قط من هذه العلاقة المباشرة مع متلقيه بمختلف شرائحهم: طلبة، زملاء، أصدقاء، نقادا، إلخ. ومرد ذلك في رأبي إلى قناعته التي طالما يشدد عليها في إشاراته الموازية ومناصاته، بصدد التعالق الحتمي بين الكينونة التاريخية والرمزية للمؤلف وما ينتجه من أعمال تخيلية أو نظرية.

ومن هنا، س يتغذى حتما كل نتاج أدبي من معطيات حياة صاحبه حسب مصافي مختلفة ومتنوعة: بدءا من الاسم، ثم المهنة، والوضع الاجتماعي؛ وغيرها من الأشياء الصغيرة أو الكبيرة التي تمد المبدع بمواد لا يستطيع "الاستغناء عنها، بل منها ينطلق وإليها يعود". والكلام هنا للكاتب.

و لا أخفي أنه في بداية تحضير لي لأطروحتي حول السيرة الذاتية التي اشتغلت فيها على نص "مسالك الزيتون"، وفي خضم محاولة استقراء ما تهيأ لي الإطلاع عليه من من نماذج وتصنيفات وترسيمات، من لوجون ودوبروفسكي وجورج ماي وغيرهم، وجدت في إضاءة للميلودي شغموم وأنا أستغثيه في الأمر، ما انتشلي من حالة القلق والتيه التي اتتاني في هذا الصدد، قائلا:

"المبدع سواء تحدث عن نفسه أو عن تجارب الأغيار، لا يمكنه أن يكتب سوى انطلاقاً من ذاته، ومعيشه الشخصي، وكونه الأثير بمعناه المادي والذهني والعاطفي. وبالتالي فإن سيرته تظل دوماً مشدرة بين أعماله وإنتاجاته. ونصوصه هي في آخر المطاف جُماعُ حياته أو حيواته العلنية والسرية والممكنة أيضاً".

ومن ثمة، ربما نتلمس بعض ما يفسر عدم صدور سيرة ذاتية بحصر المعنى للميلودي شغموم إلى حدود الآن. ذلك أن المسألة هي أعقد من أن تُختزل في مجال الوقائع اليومية والأحداث المباشرة، التي تخضع لمعيار التطابق أو التماثل. فسيرة الجسد تقاطع مع محصلة الذاكرة ومسار الفكر لدى شغموم.

ومن المؤكد أن اشتغاله بالمجال المعرفي، عبر تدريسه للفلسفة والفكر الإسلامي، وانخراطه في مداراتهما المعاصرة: بحثاً وترجمة، يعد مكوناً أوطوبيوغرافياً ينعكس بالضرورة على نشاطه الإبداعي، وينساب إلى أجنحة نصوصه ومحكياته، التي تقتات من عناصر هي أقرب إلى تكوينه الثقافي واهتماماته الفكرية، منه إلى جنس الرواية أو القصة القصيرة أو السيرة الذاتية بمواصفاتها التقليدية. إذ نجد الأسطورة والمحاورة والحكمة والتصوف، إلى جانب بلاغة الحجج والإقناع، وكذا فلسفة السخرية والتهمك، إضافة إلى منطق السؤال والمشكلة الذي يَصَهَرُ كلُّ هذه المكونات، وبمنحها النسقية والتبين داخل متخيل المبدع، ثم طي الاقتصاد الموضوعاتي والشكلي لكل نص على حدة.

ورغم ما تتميز به أعمال شغموم من قدرة على الإدهاش والمفاجأة واجترار الأفاصي في التجربة الإنسانية، فإن صاحبها بوصفه بوثقة لكل ذلك الغنى والتعدد المرجعي، يشكل حسب تجربتي المتواضعة، مدخلا حاسماً إلى تضاعيف محكياته، وذلك حتى لا تنساق وراء منطلقاتك النظرية أو المنهجية، أو تستهويك لعبة التأويل وتداعياته.

وهب أن شغموم يُضَمَّن كل نص بوصلته أو مفتاح أسرارهِ، الذي قد يكمن في الشرارة الأولى التي منها تخلق. هل يتعلق الأمر بـ:

- قوارب الموت وضياع الأصل والبحث عن المستحيل في "نساء آل الرندي"،

- بطالة الخريجين وشلل الحلم وجرح الاسم الشخصي في "شجر الخلاطة"،
- تجربة حكومة التناوب ولعنة الذاكرة التي تحجب الحب والحياة في "الأناقة"،
- وهم الأسرة ووهن الغرائز وتلاشي العمر في "خميل المضاجع"،
- سطوة الصور وديكتاتورية النسخ والأطياف والظلال في "المرأة والصبي"،
- سنوات الرصاص وترسيم العنف وندوب الماضي التي لا تلتئم في "فارة المسك"،
- تمجيد الأم ورتق الحبل السري في "الكامنجة"....

وفي تضاعيف كل هذه العوالم المتخيلة التي يستدرجنا إليها الميلودي شغموم، يهيمن المكان لا بوصفه ملاذا للاستقرار والإقامة، وإنما معبر للترحال والسفر والسياحة في الأحوال والمقامات. وهكذا نجد في نصوصه الروائية آثارا وصوى عن سيرة تنقله المتواصل بين عدد من المدن: ابن احمد (مسقط الرأس)، والمحمدية، والناظور ومكناس، والرباط، وطنجة، والدار البيضاء التي تسكنه أينما حل وارتحل.

والحاصل أن شغموم لم يكتف بالإقامة أو العبور من وإلى مدن شيدها غيره، ولكنه وعلى سمت أسلافه من الأبطال الممدنين أسس لشخصه ووقائعه وأفضية محكياته مدنا وحواضر مثل: "المنسية" و"جزيرة العين" و"الصالحية"، وهو الآن بصدد استكمال تشييد مدينته الافتراضية (موقع إلكتروني) للإبحار في وطن عنكبوتي يخترق حدود الجغرافيات والهويات واللغات، لعله يشبه "أزهى المدن" التي يترقبها الصوفية، ويحن إليها المغتربون والمبدعون.

(+) من مداخلة قدمت في اللقاء الدراسي التكريمي للروائي والمفكر الميلودي شغموم، الذي نظمته المديرية الجهوية لوزارة الثقافة بمكناس، في شهر أبريل من سنة 2009.

